المبحث الثالث:
خصائص وسمات دعوة الأنبياء وجوانب الاقتداء بهم وتفاضلهم فيما بينهم

أولاً: خصائص وسمات دعوة الأنبياء:

إن الدعوات السماوية واحدة من خصائصها، لأنها جميعاً من مصدر واحد، ولها غاية واحدة وأبرز هذه الخصائص والميزات:

1 - الربانية:

فإن أول وأهم ما تمتاز به دعوة الأنبياء أنها بوحي وتكليف من الله عَزَّوَجَلَّ ، فليست هي نابعة من نفوسهم وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم، من ظلم وبغي وجور، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق وتألمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، أو من شعورهم الرقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك أبداً، إنما هي بوحي من الله وتكليف منه جل وعلا، فكل، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال، والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 2 - 3].

ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً، أو تحويراً، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15].

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع، والظروف والأحوال ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به «در مع الدهر كيف دار»[1].

2 - الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحق قائمين على نشره، وكانوا مخلصين للدعوة متجردين عن الأغراض الشخصية لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي، أو الربح الدنيوي إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه، كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام:

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوي، ص: 34.

﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود: 51].

وكذلك قال تعالى على لسان خاتم الأنبياء وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل، وفي نصحهم وإرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح إنما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110][1].

3 - الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا:

لم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا، والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط، ودعوة لأممهم فقط، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [هود: 88].

فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة، وضحوا بها في سبيل دعوتهم وفوّتوا الفرص وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236، النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 37.

والغد المضمون، وكانوا من (اللامعين] في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62]، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: 28 - 29].

وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول ﷺ على الرخاء وخفض العيش مع غيره[1].

لقد آثر الرسل الباقية على الفانية لأنهم أيقنوا أن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: 60]، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة، وقد خاطب الله رسولنا الكريم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131][2].

4 - التركيز على عقيدة التوحيد والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إن القرآن الكريم تحدث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 46.

(2) النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 40، عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: 25-26].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: 50].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: 61].

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: 84].

فالأنبياء جميعاً ركزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى ووجود الصانع المدبر الحكيم وتحقيق العبودية لله تعالى ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنهم ركزوا على الإيمان بالغيب وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين وشعار للمهتدين، وعلامة للمتقين.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: 1 - 5].

وقد زخرت الكتب السماوية وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها

إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئة الله القاهرة، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها، أما الإيمان الذي لم يقم إلا الحس والتجربة والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به أو يأوله تأويلاً يتفق مع ما ألفه ولذلك قال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين، فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب، ، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظلّة على طائفة من بني إسرائيل - وحياتها بعد موتها، ومسخ فرق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلِمه سليمان وفهمه

لحديث النمل، ومطاوعة الرياح له، وسيرها به غدوّها شهر ورواحها شهر، وانتقال ملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1] ومنه إلى السماء إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء[2].

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمس، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مقيد مغلول وإيمان محدود مشروط لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمى إيماناً إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضل فيه ولا يختص بالدين، فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه، ونتائج استقرائه وما تؤدي إليه حواسه ويرشد إليه عقله، وأما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدق للرسل في كل ما

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 49 كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

(2) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للندوي، ص: 49.

جاؤوا به ونطقوا به، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهد وفكر مرة ثم استراح، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 - 4].

ثم آمن وأطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وصح به النقل في سهولة ويسر، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ﷺ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: 7-8].

وذكر نفسية الرجل الذي تعوّد أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق تعقله، الظاهر السطحي، وشهواته ومصالحه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: 11][1].

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 50 للندوي.

5 - إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جل وعلا:

من سمات وخصائص دعوة الأنبياء، تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات،الذين كان يعتقد أهل الجاهلية، أن الله خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة،ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام(1).

وكل من له صلة بالقرآن - وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة - يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدنون، ومنها يصدرون وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون وإليها ينتهون والقرآن يقول بالإجمال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. وتارة يقول بالتفصيل ما يسمى نبياً نبياً(2).

---

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 36.
(2) المصدر نفسه.

فإخلاص الدين لله وإفراد العبادة له هو الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء عليهم السلام، في كل عصر وزمان، وفي كل بيئة ومكان فلم يكن هدف الأنبياء صلوات الله عليهم، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم القدير، وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

6 - البساطة في الدعوة ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء وخصائصها البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 86 - 87] تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ﷺ جميعاً.

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، وألمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كلٌ على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة

العالية ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد[1].

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 135].

وانظر إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقيم الحجة القاصمة على خصمه العنيد، ويقطع عليه الطريق بأيسر الطرق وأظهر البراهين الدامغة قال تعالى: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ولهذا نجد أن أنجح طريق للدعوة هو سلوك سبيل الأنبياء عن مخاطبة الفطرة والبعد عن التصنع والمناهج الكلامية[2].

- قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي[3].

- قال الفخر الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

---

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 92.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 337.

(3) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصّلاّبي، ص: 159.

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، واقرأ في النفي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي(1).

- وقال أبو حامد الغزالي: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللّجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان(2).

7 - وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

ومن سمات دعوة الأنبياء: وضوح الهدف والغاية في الدعوة فهم يدعون الناس إلى هدف واضح، وإلى فكرة بينة، لا لبس فيها ولا غموض، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

---

(1) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصّلاّبي، ص: 159.
(2) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي، ص: 89 - 90.

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسالة ربانية واضحة بينة، لا غموض فيها ولا خفاء، ومن مظاهر هذا الوضوح أنهم قد أرسلوا في أقوامهم وبلغتهم حتى يتمكن التفاهم معهم وإيصال الرسالة إليهم، وأن الدعوة كانت تنزل منجمة حتى يفهم السائل، ويقتنع المجادل، ويسهل التطبيق، ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أن الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداء ويستمرون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه[1].

8 - الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء:

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ورعاية طبائع الناس واستعدادهم، ورعاية المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس وإقبال القلوب ورعاية التدرج والتيسير، وهذا ما تقتضيه طبيعة الإسلام السمحة وحكمة الله البليغة وفطر الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ﷺ.

- قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32].

- وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

(1) دعوة التوحيد من الكتاب والسنة.

- وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «**يسّرا ولا تعسّرا بشّرا ولا تنفّرا**»[1].

وقال لأصحابه: «**إنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين**»[2].

وقد كان يرجئ تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «**لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم**[3]، عليه السلام».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[4].

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف رجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «**فتان فتان ثلاث مرار**»[5]. وعن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «**يا أيها**

---

(1) صحيح البخاري (2/ 622).
(2) البخاري (1/ 215).
(3) صحيح البخاري (1/ 215).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.

الناس إن منكم منفِّرين، فمن أمَّ منكم الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[1].

والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[2]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [صٓ: 20].

قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: 89].

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء، أما ما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد: والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام - على اختلاف عصورهم - أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال لا يعرفون تنازلاً ولا يعرفون هوادة ولا يرضون مساومة[3].

9 - اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره،

---

(1) صحيح البخاري (1/ 215).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 35، للندوي.

(3) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 35.

وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هذا الكون، ومدبر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى وهذا هو العلم االذي يستحق أن يُسمى «علم النجاة»[1].

10 - الإيمان بالآخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامح دعوتهم وشعائرهم هو التشديد على جانب الآخرة، واللهج بها، والإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم وأن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه، حيث ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها قال تعالى: ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 23.

تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: 82 - 91].

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيه من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء وللكفار العصاة من عقاب، وهو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرُّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطان على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم، وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمان بالآخرة إلى اتباعهم والمؤمنين بهم وتجلى لهم مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، قال مؤمن من آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: 39-40].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى، لما

أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: 72 - 76][1].

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حب العلو والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي قال تعالى: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنما يُطمعونهم في رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة، والاستغفار يجلب رحمة الله، ويستدر الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 10 - 11].

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 44.

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: 25]، وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة[1].

11 - دعوة حضارية ولها أسلوبها الخاص في الحياة:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً، والإسلام - فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً، امتياز في الأساس وفي الروح، وفي الأشكال والتفاصيل[2].

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسَّسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله والإنابة والرحمة على بني الإنسان ورقة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: 114].

وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 64.

رسول الله ﷺ وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشد بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية[1].

إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أكبر دعاء إبراهيم وأكبر همه ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: 30 - 31].

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب، إنها دعوة لم تزل عقيدتها: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتمييز بين الألوان والأوطان، «**فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13][2].

---

(1) النبوة والانبياء، ص: 64

(2) مسند الإمام أحمد (5/ 411).

وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «**دعوها فإنها منتنة**»[1].

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها.

وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات المضلة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة الباقية إنها عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله، وقامت على أساس الإيمان فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني[2].

12 - خصائص الأنبياء:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله عزوجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها، وهذه الخصائص لا تخرجهم عن

(1) البخاري رقم 3518.

(2) النبوة والأنبياء، ص: 65.

بشريتهم وعبوديتهم لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

ومن أهم خصائص الأنبياء:

أ - اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [الكهف: 110].

ب - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الإسراء: والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم(1).

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»(2).

ج - تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبي يمرض إلا خيِّر بين الدنيا والآخرة**»(3)، وسُمع النبي ﷺ في

(1) البخاري في المناقب رقم 3570.
(2) البخاري في المناقب رقم 3570.
(3) المصدر نفسه رقم 4586.

شكواه التي قبض فيها يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**»[1].

س - يقبر النبي حيث يموت:

صح عنه ﷺ قوله: «**لم يقبر نبي إلا حيث يموت**»[2]، ولهذا فإن الصحابة ﷺ دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض[3].

هـ - لا تأكل الأرض أجسادهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[4].

و - أحياء في قبورهم:

صح عنه ﷺ أنه قال: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»[5]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**»[6].

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه،

---

(1) وقفات تربوية، عبد العزيز الجليل (3/ 33).

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم 5201.

(3) وقفات تربوية (3/ 34).

(4) صحيح أبي داود، للألباني رقم 925.

(5) السلسلة الصحيحة رقم 621.

(6) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2375.

فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106].

ز - لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث، وما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة**»[1].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «**إنا معشر الأنبياء**» **وإنما هي بلفظ** «**لا نورث ما تركنا صدقة**»[2].

ح - إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عز وجل أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية، لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة، ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: 39].

فحياة موسى عليه السلام كلها عظات وآيات بينات على سنته تعالى

(1) رواه النسائي في الكبرى رقم 6309، مسند أحمد 9973 إسناده صحيح.
(2) البخاري رقم 6730، مسلم رقم 1757.

في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

- أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلى التهلكة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: 7 - 8].

- أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة في بيت من يخشى عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 9].

- أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوى أمه، فكان ذلك فيما يرى الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر لطف من الله ورحمة بموسى ليرجعه إلى أمه وهم لا يشعرون، فاجتمعت له السلامة والنجاة وعطف الأمهات وعز الملوك ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 12 - 13].

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم والعطف على الضعيف، وقوة

الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم وتلخيص ذلك فيما يلي:

* - حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضي أيامه الأولى من حياته في بيئة استشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 14].

* - جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوم في نصرة المظلوم، فيتجلّى ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومدّ يد المعونة إليه، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقى حتى يصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

* - كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوى فيه الوعي الديني واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ على نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله على نعمته ووفاء له بما غفر من ذنبه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 16 - 17].

* - فاض قلبه إيماناً بالله وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

ولمّا اشدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذ توجه إلى ربه وسأله من فضله وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره أو يُعرّض لمن سقى لهما بطلب الأجر ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

وقد استجاب الله دعاءه وهيأ له بيئه صالحة يحيا فيها حياة طيبة، فقد عرض عليه شعيب ـ لما عرف عنه من القوة والأمانة ـ أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشرًا كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج

من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28] وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف(1).

(1) الحكمة من إرسال الرسل، ص: 78 - 80، عبد الرزاق عفيفي، ووقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 40).

obeikandl.com